Rihan Journal for Scientific Publishing
ISSN:2709-2097 www.rjsp.org
مجلة ريحان للنشر العلمي
Issue 35 (2023) PP 297:315
2023-05-28

تداولية الإشاريات الشخصية في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

Pragmatic Personal dexis in Ibn Shuhaid al-Andalusi's Risalat al-Tawabi' wa z-Zawabi'

İbn Şüheyd el-Endelüsî'nin (Tevâbi‘ ve Zevâbi) Risâlesinde Edimbilimsel Kişi Gösterimleri

آيات الخليف

طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية والبلاغة، جامعة أرجيس- تركيا

Ayat ALKHLIF

PHD Student, Department of Arabic Language and Rhetoric

Erciyes University

Email: wefinix@gmail.com

https://orcid.org/0000-0002-3378-3430

Prof. Dr. Kadir KINAR

Erciyes Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi- Temel İslam Bilimleri

Arap Dili Ve Belagatı – TÜRKİYE

Email: kinark@erciyes.edu.tr

https://orcid.org/0000-0003-3938-6994

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع الإشاريات الشخصية في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي في إطار مقاربة تداولية. ويركز تحليل هذا النوع من الإشاريات على طبيعتها الاستعمالية، إذ إنها ليست مجرد علامات لغوية تهدف إلى تحديد مرجع معين، بل هي أداوات تواصلية فاعلة تعكس دلالات سياقية متغيرة تختلف باختلاف مقاصد المتكلمين وأدوارهم في الخطاب، وتعمل على مساعدة القارئ في عملية الفهم والتأويل.

الكلمات المفتاحية: تداولية، الإشاريات الشخصية، رسالة التوابع والزوابع، ابن شهيد.

Abstact

This study deals with the topic of personal dexis in Ibn Shuhaid al-Andalusi's Risalat al-Tawabi' wa-Zawabi، in the framework of the Pragmatic approach. The analysis of this type of dexis focuses on their usage nature، as they are not just linguistic signs aimed at identifying a specific reference، but rather an effective communicative tool that reflects changing contextual connotations that differ according to the speakers' intentions and their roles in the discourse، and works to help the reader in the process of understanding and interpretation.

Keywords: Pragmatics، Personal Dexis، Risalat al-Tawabi' wa z-Zawabi، Ibn Shuhaid.

Özet

Bu çalışma، İbn Şüheyd el-Endelüsî'nin (Tevâbi ‘ve Zevâbi) risâlesinde'deki kişi gösterimleri konusunu edimbilimsel yaklaşım bağlamında ele almaktadır. Bu tür gösterimlerin analizi، yalnızca belirli bir referansı belirlemeye yönelik dilsel işaretler değil، aynı zamanda etkili iletişim araçları oldukları gerçeğinden yola çıkarak kullanım doğasına odaklanır. Konuşanların niyetlerine ve söylemdeki rollerine göre değişen

değişken bağlamsal çağrışımları yansıtır ve okuyucunun anlamasını ve yorumlamasını sağlamaya çalışır.

Anahtar Kelimeler: Edimbilim، Kişi Gösterimleri، Tevâbi‘ ve Zevâbi Risâlesi، İbn Şüheyd.

المقدمة

أفادت التداولية في مفاهيمها النظرية الأساسية من حقول معرفية مختلفة، وكان لها أثر في مجال تحليل الخطاب، من خلال النظر إلى الخطابات على أنها أنماط من التواصل الإنساني. ولمَّا كان الأدب خطابًا منتَجًا ضمن سياق تواصلي محدد، فإن دراسته استفادت من المفاهيم التداولية في تأكيدٍ للتقاطع بين مجالي تحليل الخطاب والبحث التداولي. وهذه النقلة نحو دراسة الأدب تداوليًا تعد خطوة بارزة في تحليله.

أضافت التداولية إلى اهتمامها بالملفوظات أو الجمل في سياق التلفظ أبعادًا أخرى تضع الخطابات والنصوص في محور دراستها. واستُعْمِلَت مفاهيمُ التداولية في حقل تحليل الخطاب ولسانيات النص، بما فيها التلفظ والسياق ومقام التواصل، والفعل الكلامي والقصد، وقوانين التحاور، والإشاريات والمُبْهَمات ومُضْمَراتُ القولِ، والحِجَاج.

أهمية البحث

تنبع أهمية البحث من تناوله لموضوع الإشاريات الشخصية في النص الأدبي بصورة تحليلية مفصلة، بالنظر إلى أن الدراسات التطبيقية المتعلقة بمباحث التداولية عمومًا وبمبحث الإشاريات خصوصًا، ما زالت قليلة بالقياس إلى الدراسات النظرية، كما أنها في حاجة إلى مزيد من التطوير، ولا سيما ما يتناول منها النصوص الأدبية التراثية.

تعد الإشاريات الشخصية أكثر أنواع الإشاريات حضورًا في اللغة، واستعمالها يوضح الأدوار التشاركية لأطراف الحوار في الحدث الكلامي، ويعكس دور السياق ومقاصد المتكلمين في تحديد المعنى المنشود بدقة.

إشكالية البحث

لا تنحصر أهمية الإشاريات الشخصية بكونها علامات لغوية مرتبطة بمرجع معين، بل إن استعمالاتها الفعلية في الكلام تنطوي على فروق دقيقة توضح نوع التفاعل اللغوي الحاصل بين

المتكلمين، والاختلافات الحقيقية في المعاني. وتكتسب هذه العلامات اللغوية خصوصية إضافية في الخطاب الأدبي الزاخر بالخيال والمعاني غير المباشرة. ومن هنا نسجل السؤال الأساسي التالي:

ما الدور التفاعلي والتواصلي الذي تقوم به الإشاريات الشخصية في رسالة التوابع والزوابع من وجهة نظر تداولية؟. ويتضمن هذا السؤال جملة من الأسئلة الفرعية التالية:

- هل ينحصر دور الإشاريات الشخصية في تعيين مرجعياتها فحسب؟
- ما الدور الذي ينهض به السياق في عملية تحديد المعاني المباشرة وغير المباشرة التي تشير إليها الضمائر في النص؟
- ما الخصائص المميزة للغة الأدبية من حيث استخدامها للإشاريات الشخصية؟

أهدف البحث

يهدف البحث إلى توضيح الدور الاستعمالي (التداولي) الذي تضطلع به الإشاريات الشخصية من حيث الكشف عن المعاني الدقيقة الكامنة في التفاعل اللغوي بين المتكلمين في النص الأدبي.

منهجية البحث

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، حيث جرى تحديد الإطار النظري المتعلق بالإشاريات بوصفها واحدة من المباحث الرئيسة للتداولية، ومن ثم جرى التركيز على تحليل الوظائف الاستعمالية (التداولية) للإشاريات الشخصية بغية التحقق من دورها الفاعل في سياق اللغة الأدبية.

1. مفهوم الإشاريات

يعرّف معجم تحليل الخطاب الإشارية Deixis بأنها: "مفهوم مترابط مع مفهوم المشير. إذ يُفهَم عادة من إشارية، تعيينُ مكان وهُوية الأشخاص والأشياء والعَلَميات والأحداث والأنشطة،... بالنسبة إلى السياق المكاني- الزماني الذي أنشأه وأبقاه عَمَلُ التلفظ" (شارودو ومنغنو، 2008، ص.156). والتعبيرات الإشارية على حد وصف ليفنسون، تذكير دائم للباحثين بأن اللغات الطبيعة وظيفتها الأساسية التواصل المباشر بين الناس، وتبرز أهميتها عندما يغيب المشار إليه، متسببًا بحالة من الغموض واستغلاق الفهم (نحلة، 2010). وتعد ظاهرة الإشاريات الطريقة الأكثر

وضوحًا التي تنعكس عبرها العلاقة بين اللغة والسياق من خلال التراكيب اللغوية نفسها (Levinson، 1983).

ويرتبط مصطلح الإشاريات بمصطلح "التأشير" الذي يدل على العملية التي تتضمن استخدام الإشاريات. ويعني التأشير "الإشارة من خلال اللغة. ويُطلَق على أية صيغة لغوية تُستعمَل للقيام بهذه الإشارة مصطلحُ "التعبير الإشاري" deictic expression،... وتسمى التعابير التأشيرية أيضا الإشاريات indexicals"(يول،2010، ص.27). ولما كان التأشير مرتبطًا بسياق المتكلم، من حيث قربه أو بعده، فإن هناك تفاوتًا بين اللغات في التعبير عن القرب والبعد باستخدام الإشاريات ذات الصلة. وهذا يوضح جانبًا من الاختلافات التي قد ينطوي عليها الاستخدام الفعلي للإشاريات بين اللغات. وهو ما يؤكد أهمية الدراسة التداولية في الكشف عن الفروقات الدقيقة الكامنة في التفاعل اللغوي بين المتخاطِبين.

فالإشاريات صيغ لغوية، يجري تفسيرها بالاعتماد على المتكلم والسامع ضمن سياق واحد؛ وتأتي لتزيل الإبهام عند غياب المشار إليه، إذ يَعرِفُ عبرها المتحاورون المقصود دون حاجة إلى وجود المشار إليه أو تكراره. والأصل في استعمال التعابير الإشارية يكون في التفاعل المباشر، حيث يَسْهُلُ على المتحاورين فَهْمُ المقصود من تلك التعابير عندما يكونون وجها لوجه (يول، 2010). ولكنها تستخدم أيضا في التفاعل غير المباشر (كما في النصوص المكتوبة)؛ لأن المُشار إليه يُفترَض أنه موجود في النص، أو أن المتكلم والمتلقي يعرفان المقصود بشكل ما. وعلى أية حال فالتفاعل اللغوي المنطوق والتفاعل اللغوي المكتوب، كلاهما يمكن أن يعبر عن مواقف حوارية وأنشطة تواصلية، ما دامت أداتهما واحدة وهي اللغة.

2. أنواع الإشاريات

جعل بعضهم التأشير باللغة ثلاثة أنواع: تأشير شخصي person deixis، وتأشير مكاني spatial deixes، وتأشير زماني temporal deixes (يول،2010). وذكر ستيفن ليفنسون أن الثلاثة الأولى تمثل التصنيف التقليدي للإشاريات، وأضاف إليها نوعين آخرين هما: إشاريات الخطاب (أو النص)، والإشاريات الاجتماعية. وتهتم إشاريات الخطاب (أو كما يسميها ليفنسون إشارايات النص) باستخدام تعبيرات داخل بعض أجزاء الكلام، للإشارة إلى جزء من الخطاب يحتوي ذلك الكلام (Levinson، 1983، p.85) ؛ أي إنها ترتبط بتشفير الإشارة إلى أجزاء من الخطاب الجاري الذي يَحدُث ضمنه الكلام (الذي يتضمن التعبير المُشير إلى النص). في حين أن

الإشاريات الاجتماعية تتعلق بتشفير الفروق الاجتماعية المتعلقة بأدوار المشاركين، ولا سيما جوانب العلاقة الاجتماعية التي تربط بين المتكلم والمُرسَل إليه (أو المرسل إليهم)، أو بين المتكلم ومَرجِع ما (Levinson)،1983 . فالإشاريات الاجتماعية ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوعِ العلاقة الاجتماعية بين المتخاطِبين، ودرجةِ التباعد النسبي بينهم، من حيث الألفة والقرب والمودة، أو الرسمية والبعد والنفور. لكن جورج يول يرى أن الإشاريات الاجتماعية تقع ضمن التأشير الشخصي؛ حيث تتوسع تصنيفات التأشيرات الشخصية للمتكلم والمخاطب ولغيرهما، لتشمل مؤشرات marks المكانة الاجتماعية؛ كالفرق بين مخاطب ذي مكانة عليا وآخر ذي مكانة دنيا. و"تسمى التعابير التي تشير إلى مكانة عليا بالمُبَجِّلات honorifics. وتسمى دراسة الظروف التي أدت إلى اختيار إحدى هذه الصيغ دون سواها باسم التأشير الاجتماعي "social deixes (Levinson)، 1983، p.63) .

أما الإشاريات الزمانية فهي مفرداتٌ وصيغ ذاتُ وظيفة خطابية أو نصية تشير إلى زمان يحدده السياق قياسًا إلى زمان التكلم (روبول، آن، موشلار، جاك، 2016). يمثل زمان التكلم مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فما قبله يكون ماضيًا وما بعده يكون مستقبَلًا. وعندما يكون زمن التكلم غامضًا، يلتبس الأمر على المتلقي، فلا يتمكن من تحديد مرجعية الصيغة الزمنية بدقة (نحلة، 2002). وتأتي الإشاريات الزمانية لتُزيل هذا الالتباس ولتحدد المقصود وفقا لسياق معين. وتلعب الإشاريات الزمانية دورًا مهمًّا في الخطاب الأدبي؛ إذ يراعي استعمالها الأبعاد النفسية والشعورية والمعاني الضمنية (غير المباشرة) التي يريد المتكلم التعبير عنها.

والإشاريات المكانية عناصر إشارية تقيس التباعد المكاني، إذ يجري من خلالها تحديد الموقع النسبي للأشياء والأشخاص (يول، 2010)، ويعتمد استعمال هذه العناصر وتفسيرها على المعرفة بمكان المتكلم أو السامع، أو أي مكان آخر يعرفه المتخاطبون. ويُحدَّد مركز التباعد المكاني وفقًا للمعرفة المشتركة لأطراف الخطاب. وهناك بعض الإشارات المكانية الوجدانية التي تعبر عن المسافة العاطفية (Levinson)،1983، p.83) . وهي تكثر في لغة الاستعمال اليومي، وكذلك في اللغة الأدبية. واستعمالها بتلك الطريقة يؤكد دور السياق في تحديد الدلالة الحقيقية والدلالة النفسية للإشاريات المكانية المستعمَلة.

ومنذ أن نشر هانسون برنامجه المتضمن درجات التحليل التداولي بالنظر إلى السياق، بدأت تتميز دراسة الرموز الإشارية ضمن ظروف الاستعمال (سياق التلفظ)، وبات من المألوف في البحث التداولي الحديث عن دراسة سياق وجودي وإحالي، نطاقه المخاطَبون، ومُحدِّداتُ الفضاء

والزمن (أرمينكو، 1986). وهذا يعني أن للإشاريات أنواعًا متعددة تختلف باختلاف السياق ومقاصد المتكلمين وطبيعة النص أو الخطاب، لكن أكثرَها حضورا في الكلام، الإشاريات الشخصية، وهي التي سنتناولها بالدراسة في تحليلنا لتداولية الإشاريات في رسالة التوابع والزوابع.

3. مفهوم الإشاريات الشخصية

الإشاريات الشخصية من الآليات المرجعية التي يوظفها المتكلم في الخطاب، وقد يسميها بعضهم المرجعية الضميرية، نظرًا إلى أن أساسها الضمائر المتعددة (حمو الحاج، 2012). ويُدرِج بعضهم اسم الإشارة والاسم الموصول ضمن الإشاريات الشخصية؛ لأنها تدخل في حيز الضمائر. والضمائر جميعها تفتقر إلى القرائن التي تُعَدُّ شرطا أساسيا لدلالتها على معيَّن (حسان،1994). إنها صيغ لا تُحيل إلى مرجع ما إلا بوجودها في السياق، وهذا يُبرِز أهميتها وأهمية السياق في آن معا. وبالنظر إلى الضمائر المستخدمة في التأشير الشخصي في اللغة العربية؛ نجدها تتمثل في ثلاثة أنماط: ضمائر المتكلم، وضمائر المخاطَب، وضمائر الغائب. ويجري التنقل في الاستعمال بين هذه الضمائر أثناء الحديث وفق سياق مشترك بين المتكلم والمخاطب، تتضح من خلاله مرجعيات الضمائر بدقة.

4. الإشاريات الشخصية في رسالة التوابع والزوابع

سنبحث في الإشاريات الشخصية المتضمنة في نص رسالة التوابع والزوابع، للكشف عن أنواعها وطرق توظيفها ودورها التواصلي والبنائي. وسنتوقف عند درجات ورود أنواع معينة من الإشاريات الشخصية بنسبة أكبر من غيرها، للوقوف على دلالات ذلك من الناحية التداولية.

- **الضمائر**

الضمائر أكثر الإشاريات الشخصية وضوحًا، وتكون دالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب. وقد تأتي منفصلة أو متصلة، ظاهرة أو مستترة. لكنها دائما لا تؤوَّل إلا في سياق قولها (موشلار وروبول، 2010). وقد وعى النحاة العرب الطبيعة التداولية للضمائر. فالضمير "هو الموضوع لتعيين مسماه مُشعِرا بتكلُّمِه أو خطابه أو غيبته" (المرادي، 2001، ص.358). ويرتبط وضع هذه الضمائر بغايات استعمالية مهمة؛ مثل إزالة اللَّبس وتحقيق الاختصار في الكلام. جاء في شرح الكافية للرضي "المقصود من وضع المضمرات رفع الالتباس، فإن أنا وأنت لا يصلحان إلا لمعينَين، وكذا ضمير الغائب نَصٌّ في أن المراد هو المذكور بعينه... وفي المتَّصِل يحصُل مع رفع الالتباس الاختصارُ" (مصري،1997).

- **ضمير المتكلم**

للسياق في التداولية دور أساسي في توجيه الأحاديث والنصوص والخطابات، وهو يتحكم في شكل الخطاب وفي طرق الاستعمالات اللغوية فيه. ونجد هذا واضحًا في استعمالات الضمائر وتنويعها ضمن نص الرسالة. فقد تفاوت استعمال ضمير المتكلم تبعًا للسياق العام وللضرورات التي فرضتها طبيعة المواقف الكلامية.

سجل ضمير المتكلم حضورًا قويًا في رسالة التوابع والزوابع، إذ بدأ ابن شهيد برواية قصته في أرض الجن مستخدمًا ضمير المتكلم، للدلالة على أنه بطل القصة ومحور الأحداث جميعًا. وجاء ضمير المتكلم ظاهرًا متصلًا أحيانًا، ومستترًا أحيانًا أخرى لم يتلفظ به الكاتب أثناء تمهيده لقصته؛ لأن إحالة الضمير معروفة من السياق. يقول: "**كنتُ** أيامَ كُتَّابِ الهجاء، **أَحنُّ** إلى الأُدباءِ، **وأَصبو** إلى تأليفِ الكلامِ **فاتَّبَعْتُ** الدواوين، **وجلستُ** إلى الأساتيذِ، فنبَض **لي** عِرْقُ الفَهْمِ،... وكان **لي** أوائلَ صبوتي هوىً اشتدَّ به **كلَفي**. ثم **لحقَني** بعدُ مللٌ... فاتفقَ أنْ ماتَ مَنْ **كنتُ أهواهُ** مُدَّةَ ذلك الملل، **فجزعتُ وأخذتُ** في رثائِهِ..." (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.246-247). ومعظم استعمالات ضمير المتكلم في الرسالة جاءت بصيغة الضمير المستتر، إلا في بعض المواضع التي دعت إليها ضرورات الاستعمال. وهذا أمر بدهي بالنظر إلى أن الضمائر المستترة تعد ضربًا من الإشاريات يمكن إدراكه والإحالة عليه من السياق، فلا يتلفظ بها المرسِل عندما تدل عليها الحال.

ومن المواضع التي تتطلب التلفظ بضمير المتكلم مواضع التساؤل (الشهري،2004). كما في الشاهد التالي: "وقلتُ له: بأبي أنتَ، من أنتَ؟ قال: **أنا** زهير بن نُمَير" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.247). استُعمِل ضمير المتكلم ظاهرًا منفصلًا في إطار الإجابة عن السؤال، ولا سيما أن المخاطب مضطر إلى التعريف بنفسه بعد السؤال، حتى يؤسس قناة تواصل ناجحة مع المتكلم. ومن ذلك المثال التالي: "قال: فمن القائل؟ ... قلتُ: **أنا**" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.296). فلا تُتَصَوَّرُ إجابةٌ أخرى إذا كان المتكلم يقصد الحقيقة والوفاء بشروط الصدق، وكان هو القائل فعلا.

ومن المواضع التي يتضح فيها دور الضمير في إزالة اللبس، الابتداء به بعد الحصر. ففي المثال التالي: "قلتُ: وإنما **أنا** نفَّاخ عندك منذ اليوم؟" ((ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.290)، لو حذفنا الضمير (أنا) من الجملة لالتبس الأمر على السامع، ولَما عُرِفَ مَن هو المقصود بكلمة (نفّاخ) على وجه الدقة.

وهناك بعض المواضع التي يَستدعي فيها توكيدُ المعنى وتوضيحُه التلفظَ بالضمير. كما في المثال التالي: "قال: حيائي من التحسُّن باسم الشعر و**أنا** لا أُحْسِنُه". ومن هذه النمط أيضا قوله: "وحضرتُ **أنا** أيضا وزهير مجلسا من مجالس الجن" (ابن بسام الشنتريني، 1979، ص.283)، فالضمير هنا ضروري لغرض الإيضاح وتحديد المقصود بدقة.

يأتي الاستخدام الكثيف لضمائر المتكلم في رسالة التوابع والزوابع، منسجمًا وطبيعةَ النص، ومتطلبات السياق. فالنص يتخذ شكل قصة، يجري عَرْضُ أحداثِها ضمن مشاهد متعددة. والمؤلف هو الراوي وهو البطل في الوقت نفسه؛ لذلك يُعَدُّ المتكلمَ الأساسيَّ في النص. وهو يروي ما جرى معه في رحلته الخيالية إلى عالم الجن. ويعرض الحوادثَ التي مر بها، والشخصيات التي التقى بها، وما دار بينهم من أحاديث. وعلى مستوى البنية العميقة للنص يكشف الاستخدام المكثف لضمير المتكلم عن بعض الخصائص النفسية لصاحبه، وعن غرضه ومقصده الأساسي من تشكيل نصه. ففي ضوء المعرفة الخلفية المتوفرة عن حياة ابن شهيد وشخصيته وعلاقاته وظروف عصره وخصائص رسالته، يمكن القول إن جميع هذه العناصر شكلت سياقًا عامًا للنص، وتحكَّمت في طرق الاستعمال اللغوي فيه. فابن شهيد يريد إبراز مقدرته الأدبية في الشعر والنثر، وبراعته في نقد الشعراء والكتّاب، ويحاول الرد على معارضيه ومنتقديه من خلال تضخيم (الأنا) وإدخالها في خضم رحلة خيالية يثبت من خلالها تفوقه.

لا يكفي -وفق بعض الباحثين- أن يتحدد مرجع الضمير، وإنما يجب توفر شرط الصدق بمطابقة المرجع للواقع، ومن الضروري -حسب بيرس- أن تكون الإشاريات محددةَ المرجع، عن طريق تحقُّق العلاقة الوجودية بين العلامة وما تدل عليه (أرمينكو، 1986). فعبارة مثل: أنا مخترعُ الهاتفِ، تعد كاذبة؛ لأن مرجع الضمير فيها لا يتطابق مع الواقع، إلا إذا كان القائل هو فعلا مخترع الهاتف (أي غراهام بيل)، وأنه قال جملته هذه في لحظة تاريخية محددة تتضمن وجوده. ولعلنا نلاحظ الغنى الذي تتسم به اللغة العربية، إذا ما أصبحت الجملة السابقة بالشكل التالي: أنا مخترعٌ هاتفا. فمثل هذه الجملة لا تعد كاذبة بالمطلق في سياق معين؛ كأن تكون لدي القدرة، وأن يكون الهاتف الذي سأخترعه مختلفًا عن ذلك الهاتف الأساسي الذي اخترعه المخترع الأول، وألا أقصد تضليل السامع أو السخرية منه. وهنا نلاحظ أهمية السياق في تحديد مرجعية الضمير وتطابُقِ المرجع مع الواقع.

لكن الخطاب الأدبي يتميز من الخطابات الأخرى والحوارات اليومية باستخدامٍ فريد للغة، إذ يمكن أن تحيل الضمائر على المتكلم، من غير أن يكون هو الفاعل على وجه الحقيقة. ويلجأ

المؤلف إلى مثل هذا الأسلوب، لتحقيق مقاصد معينة بصورة غير مباشرة. وهذا يستوجب نظرة مختلفة إلى مفهوم المرجع ومفهوم الصدق في الإشاريات الشخصية؛ لأن سياق الموقف والسياق الثقافي (المعارف المشتركة بين المتكلم والسامع/القارئ)، تلعب دورًا أساسيًّا في فهم المعنى ومعرفة مقاصد المتكلم.

وردت صيغة المتكلم الجمع في إطار استراتيجية تضامنية، تمثلت في استخدام الضمير نحن في سياقات معينة. فبعد تَعرُّف ابن شهيد إلى تابعه زهير بن نمير، أصبحا رفيقَي رحلة. وكان ابن شهيد يؤكد هذه الرفقة في كثير من المواضع باستخدام الضمير (نحن). كما في الأمثلة التالية: "وسِرْنا حتى انتهَينا إلى أصلِ جبلِ دير حَنَّةَ... وسِرْنا نَجتابُ أديارا وكنائسَ وحانات، حتى انتهَينا إلى ديرٍ عظيمٍ... وأَقبلَتْ نحوَنا الرَّهابينُ... ونَزَلْنا وجاؤوا بِنا إلى بيتٍ" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.259).

ومن صور ورود ضمير المتكلم الجمع (نحن)، استعماله للدلالة على المتكلم المفرد. وهذا نوع من التعظيم للذات أو الحديث بأسلوب رفيع أو إرادة تعميم القضية. ومن ذلك في التوابع والزوابع قول صاحب أبي نواس، ردا على أبيات أنشدها ابن شهيد: "هذا والله شيء لم نُلْهَمْه نحن" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.264).

وقد يرد ضمير المتكلم الجمع ليدل على المتكلم والمخاطب والغائب معًا، ففي التوابع والزوابع، يطلب تابعُ ابن شهيد من أحد توابع الشعراء أن يأتمَّ بهم (هو، وابن شهيد، ومعهم المخاطَب). ويتضح ذلك في المثال التالي: "فركضنا ساعة، وجُزْنا في ركْضنا بقصر عظيم... فخرج إلينا فتى على فرس أشعل... فقال له زهير: إنك مؤتمُّنا" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.257).

يتضح مما سبق أن ضمير المتكلم من الإشاريات الشخصية التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمقام وظروف السياق، ولنوع النص الأدبي وغرضه ومقاصد المؤلف دور أساسي في تحديد درجة حضور هذا الضمير. فقد كان ضمير المتكلم المفرد المستتر الأكثر بروزا في النص، وكان للمتكلم عموما دور محوري في توجيه الحديث، كيف لا وهو بطل القصة في رسالة التوابع والزوابع!.

- **ضمير المخاطب**

إن رصد طريقة توزع ضمائر المخاطب في النص، يمكن أن يؤكد أهمية السياق في توجيه الأقوال الملفوظة. ففي رسالة التوابع والزوابع تقوم القصة في أساسها على مشاهد متعددة، تتخللها حوارات بين ابن شهيد والشخصيات التي كان يلتقيها. ولذلك فإن ضمير المخاطب يحضر بوصفه طرفا أساسيا في عملية الحوار. والرسالة تبدأ بضمائر المخاطَب؛ لأن مؤلِّفها يوجِّهُها في الأصل إلى صديقه أبي بكر بن حزم. فيقول: "لله أبا بكرٍ ظنٌّ رميتَهُ فأصْمَيتَ... أبديتَ بهما وجه الجليَّة، وكشفتَ عن غرةِ الحقيقة. حين لَمَحْتَ صاحبَك الذي تَكسَّبْتَهُ، ورأيتَه قد أَخذَ بأطرافِ السماءِ... فأمَّا وقد قُلتَها أبا بكر، فأَصِخْ أُسْمِعْكَ العجَب العُجاب"(ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.246).

ثم تمضي الرسالة بعد ذلك في عرض المواقف التي مرَّ بها ابن شهيد في رحلته إلى أرض الجن. وفي كل موقف كان يحضر طرفان في الغالب: المتكلم/ابن شهيد، والمخاطَب/ أحد الشخصيات الأخرى في القصة. وأغلب استعمالات ضمير المخاطب في هذا السياق كانت بالمفرد المذكر، ما عدا المشهدين الأخيرين اللذين التقى فيهما ببغلة أبي عيسى، وبالإوزة العاقلة. ففيهما اعتمد ابن شهيد على التشخيص في إسباغ الصفات البشرية على الكائنات التي لا تعقل، وبذلك تمكن من مخاطبتها وكأنها شخوص بشرية حقيقية. لكنه كان مدركا في الوقت نفسه أنها من طبيعة مختلفة؛ لذلك كان يخاطبها وهو غير متجاهلٍ حقيقتَها الحيوانية. ومن ذلك حواره التالي مع الإوزة: "أيتها الإوزة الجميلة، العريضة الطويلة، أَيَحْسُنُ بجمالِ حدَقَتَيْكِ، واعتدال مَنْكِبَيْكِ، واستقامةِ جناحَيْكِ، وطُوْلِ جِيْدِكِ، وصِغَرِ رأسِكِ، مقابلةُ الضَّيْفِ بمثْلِ هذا الكلام؟" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.299). "يا أمَّ خفيف، بالذي جعلَ غذاءك ماء، وحشا رأسكِ هواء، ألا أيهما أفضل الأدب أم العقل؟.. فهل تعرفين في الخلائق أحمقَ من إوزة؟ قالت: لا. قلتُ: فتطلَّبِي عقلَ التجربة، إذ لا سبيلَ لكِ إلى عقل الطبيعة، فإذا أحرزْتِ منه وبُؤْتِ منه بحَظٍّ، فحينئذٍ ناظري في الأدب" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.301). وفي مشهد آخر يخاطب ابن شهيد قطيعا من الحمير بالقول: "ما الخَطبُ؟ حُمِيَ حماكِ أيتها العانة، وأَخْصَبَ مرعاك؟" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.297).

تعكس استعمالات ضمائر معينة مثل (نحن) حالة التضامن والتعاون التي تنشأ بين أطراف الخطاب. وتعمل ضمائر أخرى مثل (أنا) و(أنت) على تحديد أطراف الخطاب والكشف عن مقاصدهم في سياق معين. وهذا يعني أن الإشاريات الشخصية ليست مجرد علامات لغوية تستخدم في الجمل لتُحَدِّدَ مرجعًا معينًا، بل إنها تعكس دلالات سياقية غيرَ ثابتة، تتغير وفق نوع الخطاب، ومقاصد المتخاطبين.

من جهة أخرى، تتسم بعض اللغات، ومنها العربية، باستعمال صيغ تُميِّزُ بين المخاطب المألوف والمخاطب غير المألوف. فتُستخدَم صيغة الجمع -على سبيل المثال- لمخاطبة شخص لا نعرفه أو أنه أعلى مكانة، كما تُستخدَم معها مفردات التبجيل في الوقت نفسه، أو يُستخدَم التبجيل وحده وفق درجة التباعد بين المتكلم والمخاطب ومكانة كل منها مقارنةً بالآخَر. وتتدخل عوامل مختلفة في تحديد مكانة المخاطَب؛ من بينها السن والمكانة الاجتماعية والسلطة وغيرها. وقد تستخدم صيغة مكانَ صيغة أخرى على سبيل السخرية، أو الاتهام، أو تعميم قضية ما أو تخصيصها، أو للتعبير عن سوء العلاقة بين المتكلم والمخاطب. ويشير جورج يول إلى أن اختيار إحدى تلك الصيغ يوصل شيئًا لم يتم قوله مباشرة حول رأي المتكلم عن علاقته بالمخاطب، أو يعبر عن فروقات المكانة الاجتماعية بينهما (يول، 2010).

ومن الصيغ التي تعمل مع ضمير المخاطَب بصفتها محددات أو إشارات لنوع العلاقة بين المتكلم والمخاطب، صيغ الترحيب وصيغ الدعاء. والدعاء قد يكون للمخاطَب، فيحدد علاقة إيجابية. مثل قول ابن شهيد لتابع الجاحظ: "ليس هذا -**أعزَّك الله**- مني جهلا بأمر السجع" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.269). وقد يكون دعاءً على المخاطب، فيعكس شكل العلاقة السلبية بين المتكلم والمخاطب. كقول أبي الطبع تابع البحتري لزهير بن نمير تابع ابن شهيد: "**لا بورك فيكَ** من زائر، ولا في صاحبك أبي عامر" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.258).

والمتكلم يتوجه عادة بكلامه إلى مخاطَب ليُسْمِعَه ولتصل رسالته إليه، لكن هناك بعض الحالات التي لا يتلفظ بها المتكلم بأقواله على مسمع من المخاطَب، ولا يقصد إيصال رسالة مباشرة. ولهذا الأمر علاقةٌ وثيقة بمقاصد المتكلم ومكانة المخاطب، ونوع العلاقة بينهما. وفي مثل هذه الأحوال يلجأ المتكلم إلى الحديث الداخلي (بينه وبين نفسه)، فيوجه الكلام الذي يريده إلى المخاطب، من غير أن يضع نفسه في موقف المنتظِر لعواقب أقواله. ويأتي هذا الأسلوب إما بسبب الخوف من المخاطب أو احترامًا له أو خشيةَ ترك أثر سلبي في الجماعة يسيء إلى صورة المتكلم وحده أو المتكلم والمخاطب معا. ومثل هذا الاستعمال يوجد في اللغة الأدبية شعرها ونثرها، كما يوجد افتراضيًّا في لغة الحديث العادية[1]. لكننا في تتبعنا لمثل هذا الاستعمال في النص، لم نعثر على أمثلة واضحة تغطي هذا الجانب. فقد كان الخطاب موجها من المتكلم إلى المخاطب بصورة

[1] يحدث في لغة الحياة اليومية أن يقوم المتكلم بصياغة عبارات موجهة إلى المخاطب في عقله, لكنه لا يتلفظ بها غالبا إذا كان السياق يمنع من ذلك. وتبقى هذه العبارات خاصة بالمتكلم, لا يمكن أن يعرفها أو يحددها إلا هو, ما لم يتلفظ بها في خطاب أو يكتبها في نص ما. فعندئذ تخرج من حيز الافتراض إلى الوجود الكلامي الحقيقي. تعكس هذه العبارات على كل حال نوع العلاقة بين المتكلم والمخاطب, وتبرهن على أن المتكلم يضمر أكثر مما يصرح به. كما أنها تؤكد أننا نفكر بالكلمات؛ أي أن الأفكار التي تتكون في أذهاننا تتخذ شكلا لغويا حتى لو لم نتفوه به. فلا يمكن أن نفكر بمعزل عن اللغة.

مباشرة، ولم تكن هناك دواعٍ سياقية تستوجب أن يستخفي المتكلم وراء صيغة تُجَنِّبُه التفاعل المباشر مع المخاطب. وفي هذا أيضا تمييز للنصوص الأدبية التراثية من تلك الحديثة التي تفسح مجالا أوسع لتفاعل الأصوات الداخلية في الخطاب.

وقد اشتملت النص على مجموعة من الاستعمالات المميزة للإشاريات الندائية. ووردت هذه الإشاريات في سياقات مختلفة متضافرةً مع ضمائر الخطاب، ومرتبطة بأغراض متعددة تعبر عن مقاصد المتكلم. وأكثر أدوات النداء المستعملة كانت (يا) الظاهرة أحيانا والمضمرة أحيانًا أخرى. ففي مقدمة رسالة التوابع والزوابع، نعلم من أسلوب النداء أن المخاطَب الأساسي في الرسالة هو أبو بكر بن حزم. وقد ذُكِرَ في موضعين يؤكدان أن الرسالة موجهة إليه. في قوله: "الله **أبا بكر** ظنٌّ رميتَه فأصمَيت.... وكنتُ **أبا بكر** متى أُرْتِجِ علي.. أنشِدُ الأبيات، فَيَمْثُلُ لي صاحبي" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.246).

وكما أن الضمائر الشخصية تتوسع لتَضُمَّ مؤشرات المكانة الاجتماعية، تتوسع أيضا الصيغ الندائية لترتبط بمؤشرات اجتماعية، ولتعبر عن درجة التباعد بين المتكلم والمخاطَب. ويظهر هذا بوضوح في اللغة العربية؛ فتُستخدَم أدواتُ نداءٍ للبعيد والقريب (يا)، وأدوات للبعيد (أيا/ هيا)، وأخرى للقريب (أي، الهمزة). والقرب أو البعد المقصود قد يكون زمانيا أو مكانيا، حقيقيا أو شعوريا، وتتجلى في الأغراض البلاغية للنداء، بعض مظاهر العناية بالمكانة الاجتماعية للمخاطب، وهي معان ترتبط بمقاصد المتكلم وسياق التكلم أو الخطاب. ومنها: الردع والزجر، والدهشة والتعجب، وتنبيه السامع، والدلالة على مكانة السامع الرفيعة، والإغراء، والتمني، والتحسر... وغيرها. ويلحق بذلك أيضا استعمال النداء بغرض الاستغاثة أو الندبة، باستخدام أدوات (يا) للاستغاثة و(وا، يا) للندبة.

ومن استعمالات النداء المرتبطة بمكانة المخاطب الرفيعة، والعلاقة الإيجابية بينه وبين المتكلم؛ قول ابن شهيد لأبي الطبع تابعِ البحتري: "أبا الطبع على رِسْلِك" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.257). فالمتكلم/ ابن شهيد لا تربطه معرفة سابقة بالمخاطب/ تابع البحتري، وهو يراه لأول مرة، لكنه يُكِنُّ له احترامًا ويضعه في مكانة رفيعة؛ لذلك فهو يناديه بكُنيته. وفي سياق آخر يخاطب ابن شهيد قطيعَ الحمير الذي قابلَه في طريقه، مستخدمًا نداءَ القريب للتحبب والتأنيس الممزوجِ بشيء من السخرية. فالقطيع قريبٌ منه زمانيا ومكانيا بالفعل، لكنه يريد أن يعبر عن قربه المعنوي أو الشعوري. فيقول: "حُمِيَ حِماكِ أيتها العانة، وأَخْصَبَ مَرعاكِ" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.297). وفي مقام الاندهاش وإظهار التعجب والغضب يستعمل ابن شهيد النداء

بالحرف (يا)، مع صيغةٍ تُشعِر بمكانة المتكلم الرفيعة. فقد خاطبه تابع الجاحظ قائلا: "ارمِهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفعك عندهم" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.269). وأما قول تابع عبد الحميد الكاتب: "أهكذا أنت يا أُطَيلس؟" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.270)، ففيه نوع من السخرية والتصغير، إذ نادى المتكلمُ مخاطَبَه بصفة الذئب وبصيغة التصغير، ليحط من مكانته.

- **ضمير الغائب**

يَحضُر ضمير الغائب في النص بصفته الطرف الثالث في عملية التواصل. وعلى الرغم من أن ضمير الغائب عادة لا يشارك في الحديث، فإن له دورًا في تحقيق التوازن في التفاعل اللغوي ولا سيما في النصوص الأدبية. ففي سياق القَصِّ لا يُستغنى عن ضمير الغائب، ولا سيما في مقام الوصف؛ إذ يستدعي سردُ الأحداث الخارجية التي يتدخل فيها طرف ثالث ووصفُ البيئة المحيطة، التعبيرَ عن ذلك بضمير الغائب غالبا.

ففي رسالة التوابع والزوابع نلمح تنويعًا فريدًا للضمائر في سياق القصة. ويأتي ضمير الغائب مفردًا وجمعًا، ليُحدِّد سلوكَ الشخصيات في غير وَضْعِ التكلم، وليصِف خصائص تلك الشخصيات، وليبين تحكُّم بعض الظروف السياقية الأخرى. ففي رحلة ابن شهيد إلى دير حنة، وقف يصف الجو العام ومشاهداته هناك، فقال: "**وأقبلَتْ** نحوَنا الرَّهابِين، **مُشَدَّدةً** بالزَّنانير، قد **قَبَضَتْ** على العَكاكيز، **بِيْضَ** الحواجبِ واللِّحى، إذا **نَظروا** إلى المرء **استحيا**، **مُكثِرينَ** للتسبيح، **عليهم** هَدْيُ المَسيحِ"(ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.259).

وللسياق أهمية كبيرة في تحديد مرجعية الضمير؛ ففي الجملة الواحدة تتكرر ضمائر غائب متعددة، ولولا الاستعانة بالسياق وتوفره على ذِكْرٍ سابقٍ لمَرْجِعِ الضمير، ما أَمْكَنَت معرفةُ الأطراف المَعْنِيَّة بدقة. ففي الجملة التالية: "دَفعَنا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كَثِيْب، **وبيده قناة قد أَسندَها إلى عنُقه**". تتحدد مرجعيات الضمائر في الجملة الثانية، بالرجوع إلى الجملة الأولى وبعض أجزاء الثانية. حيث تحيل (الهاء) في كلمة (بيده) على الفارس، وتحيل (ها) في كلمة (أسندها) على القناة، في حين تحيل (الهاء) في كلمة (عنقه) على الفارس أيضا.

- **الانتقال بين الضمائر لفظيًّا ومعنويًّا**

وفقا لبنفينيست، يُعَدُّ من خصائص الإشاريات الشخصية الدالة على المتكلم والمخاطب إمكان الانتقال بينهما، وتعذُّر ذلك بينهما وبين الغائب. ففي أثناء التخاطب (المحادثة/الحوار) يمكن

أن يتبادل المتخاطِبان دورَيهما، فيتحول المتكلم إلى مخاطب والمخاطب إلى متكلم، في حين أن الغائب يبقى غائبا دائما، ولا يمكن أن يفارقه هذا الدور إلى دور آخر (الشاوش، 2001).

لكن ملاحظة بنفنيست بشأن بقاء الغائب غائبا وعدم إمكانية انتقاله إلى نوع آخر من الضمائر، تبدو تعميمية. ففي الكلام المنقول وفي السرد القصصي وفي الشعر يمكن أن تتحول ضمائر الغائب إلى مخاطب أو متكلم. فشخصيات القصة المروية في رسالة التوابع والزوابع، تعد جميعًا باستثناء المتكلم الأساسي/ الراوي، شخصيات غائبة في وقت كتابة الرسالة. ففي الهيكل العام للرسالة، هناك متكلم/ مرسل يقوم بتوجيه رسالة إلى مخاطب/ مرسَل إليه. أما الرسالة فهي تعبر عن غرض كاتبها ومقصديته باستعارة قالب القصة المحتوية على شخصيات متعددة. وتقوم الشخصيات الغائبة في الواقع، برسم عالم موازٍ بديل من العالم الحقيقي، تتحرك فيه وتتحدث، وترتبط بعلاقات حوارية وتفاعلات مختلفة مع المتكلم. ويَستخدِم المتكلم الرواي للقصة تشكيلة الضمائر المتاحة وفق السرد القصصي (متكلم- مخاطب- غائب)، لوضع الشخصيات في إطارها القصصي الصحيح.

والناظر في الحوار التالي الذي دار بين ابن شهيد وتابع أبي نواس، يوضح الانتقال السلس بين الضمائر وفق السياق القصصي. فالتابع نفسُه في المشهد نفسِه، مرة يكون غائبًا ومرة يكون متكلمًا ومرة يكون مخاطبًا: "فصاح من حبائل نشوته: أأشجعي؟ قلت: أنا ذاك. فاستدعى ماء قراحًا، فشربَ منهُ وغسلَ وجهه، فأفاق واعتذر إليَّ مِن حاله، فأدركتْني مهابتُه وأَخذتُ في إجلاله، لِمكانِه من العِلْم والشعر. فقال لي أَنْشِدْ، أو حتى أُنشدَك؟. فقلت: إن ذلك لَأَشَدُّ لتأنيسي، على أنه ما بعدكَ لمحسن إحسان... فلما سمع هذا البيت قام يرقصُ ويردده، ثم أفاق، ثم قال: هذا والله شيءٌ لم نُلْهَمْه نحن..." (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.260-264).

يمكن أن يتحول أحيانًا دور المخاطَب إلى غائب في ظاهر القول، لكنه يبقى مخاطَبًا بصورة غير مباشرة. ويرجع مثل هذا الأمر مرة أخرى إلى قرائن السياق، ومقاصد المتكلم، ويعتمد على وجود معرفةٍ مشتركة بين المتكلم والمخاطب، تسمح للمخاطَب بإدراك أن الحديث موجه إليه ولو لم يستخدم المتكلم أسلوب الخطاب المباشر. إن مثل هذه الاستعمالات تعتمد على قصد المتكلم ويلعب فيها السياق دورًا واضحًا، وهي مما نجده أيضا في لغة الأطفال أحيانًا وعند متعلمي اللغات الجديدة، على الرغم من أن الأمر مختلف في هذين النوعين الأخيرين؛ فهو يعبر عن خطأ استعمالي غير مقصود، في حين أن له وظائف عميقة في بنية النص الأدبي.

ولعل من أهم خصائص استعمال الضمائر في اللغة الأدبية المرونة في الانتقال بينها. ولضمير الغائب خاصةً دورٌ مميز في النص الأدبي إذ يمكنه أن يشكل قناعًا لضمائر أخرى، وبذلك يمكن للأديب التعبير عن المعاني بصورة فيها تنويع وحركة وعمق. ومن مظاهر استخدام ضمير الغائب مكانَ ضمائر أخرى لأغراض معنوية عميقة، المثال التالي: "فقال لي أنشِد. قلتُ: **السيد أولى بالإنشاد**" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.249). يبين هذا المثال درجة عالية من التأدب لدى المتكلم، حيث لم يُخاطِبْ تابعَ امرئ القيس بصورة مباشرة، إنما استعمل ضمير الغائب مدعوما بكلمة تدل على علو مكانة المخاطب (كلمة سيد). وكان بإمكانه أن يقول: أنت أولى بالإنشاد. ومن الأمثلة التي جاء فيها ضمير الغائب مكان ضمير المتكلم، المثال التالي: "فصاح زهير: يا عَتَّاب بن حَبْناء، **حَلَّ بك زهير وصاحبُه**" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.253). وهنا كان يمكنه القول: حللتُ بك مع صاحبي، لكنه عَدَلَ إلى ضمير الغائب لمناسَبة السياق. فالجني كان غائصا في عين الماء، ولم يكن يرى المنادي، فكان من المناسب أكثر أن يَعْرِفَ اسمَه قبل الخروج إليه.

استخدم ابن شهيد ضمير الغائب في أكثر في موضع بدلًا من ضمير المخاطب أو المتكلم، لغاية الفخر بنفسه بصورة غير مباشرة. ففي المثال التالي: "فلما انتهيتُ، قال لزهير: إنْ امتدَّ به طَلْقُ العُمر، فلا بُدَّ أنْ يَنفُثَ بدُرٍّ، وما أَراه إلا سيُخْتَضَرُ، بين قريحةٍ كالجَمْر، وهمَّةٍ تَضَعُ أَخْمَصَه على مَفْرِقِ البَدرِ"[2] (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.267). يوحي ضمير الغائب في المثال السابق بأن الشخصية تتكلم من تلقاء نفسها وانطلاقًا من قناعاتها الخاصة، وتتوجه بالكلام إلى زهير بن نمير لا إلى ابن شهيد، وكأنها تُسِرُّ بشيء ما. أما الواقع فهو أن ابن شهيد يفخر بنفسه على لسان شخصية أخرى، وهل كان بإمكان الشخصيات جميعًا أن تقول ما قالت لولا أنها تنقل ما يريد لها الكاتب أن تنقله؟!. في العالم الواقعي لا يمكن للمتكلم أن يُقوِّل أحدًا ما لم يقُل، لكن في عالم الأدب يكون الأمر ممكنًا، لا بل أساسيًّا. ويعمل السياق الذي ينسجه الأديب على قول كل ما يريده وما يفكر به على ألسنة الشخصيات. ويبقى عنصر الخيال قائمًا وأساسيًّا على الرغم من احتواء اللغة في الأدب على بعض العناصر الواقعية.

من خصائص اللغة الأدبية أيضًا، أن ضمير المتكلم قد يتحول إلى مخاطب لفظًا، على الرغم من احتفاظه بصفته الأصلية (التكلم). ويحدث هذا عندما يُجَرِّدُ المتكلم من نفسه شخصية مقابِلةً له يخاطبها وكأنها شخص آخر. ففي المثال التالي: فقلت لنفسي: العصا من العُصَيَّة! إنْ لم

[2] اختضر: مات غضا شابا. أخمص القدم باطنها الذي يرتفع عن الأرض عند المشي.

تُعربي عن ذاتِك، وتُظهِري بعض أدواتكِ، وأنتِ بين فرسان الكلام، لم يَطِرْ لكِ بعدها طائرٌ، وكنتِ غرَضًا لكلِّ حَجَرٍ عابِر" (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.274). ومرة أخرى يتأكد لنا دور السياق في تحديد مرجعية الضمير المستخدم. ففي المثال السابق يتضح أن المتكلم يخاطب نفسه بالذات، وليس شخصية أخرى حقيقية. وحتى لو لم يتلفظ بمرجعية ضميره (كلمة نفسي)، فإن السياق عموما يشير إلى مقصده.

وقد يحدث في النص الأدبي التفاتٌ من ضمير المخاطب إلى الغائب، لغاية تعميم المعنى وتوكيده. كما في المثال التالي: "أيتها الإوزة الجميلة،... أيَحْسُنُ بجمال حدَقَتيكِ،... مقابلة الضيفِ بمثل هذا الكلام؟... وأنا الذي هِمْتُ في الإوز صبابةً، واحتملتُ في الكلَفِ بها عضَّ كلِّ مقالةٍ، وأنا الذي استرجعتُها إلى الوطن المألوف..." (ابن بسام الشنتريني، 1997، ص.299). فالقِسْم الأول من المثال يتوجه فيه المتكلم/ ابن شهيد إلى الإوزة بالخطاب المباشر، لكنه يَعْدِلُ منه في القسم الثاني إلى ضمير الغائب. ويُمَكِّن استعمال ضمير الغائب من تعميم المسألة؛ لإحداث مزيد من التأثير في المخاطب. فهو محب للإوز جميعا وعارفٌ لخصالها الحميدة الكثيرة. ولهذا الالتفات أهمية في إضفاء حركة وحيوية على النص، بالإضافة إلى حمْله وظيفة معنوية. فالالتفات يعمل على تنبيه المخاطب إلى أهمية ما يقال من كلام، عن طريق إحداث نوع من الصدمة لأفق توقعه، بالانتقال من ضمير إلى آخر في سياق واحد.

ويَحدُث أيضا أن يتحول المتكلم إلى غائب في الخطاب مع المحافظة على دوره حقيقةً، وهو أمر مرتبط -مرة أخرى- بسياق الخطاب. وهذه سمة في الخطاب، يَعُدُّها محمد الشاوش من البراهين على أن اللغة قادرةٌ على الاستغناء عن ثنائية متكلم/مخاطب، لتحقيق أغراض أخرى، ومن دون أن يصبح الخطاب مستحيلًا (الشاوش، 2011). يَظهَر ذلك، أحيانًا في مقامات التبجيل أو التحقير؛ مثل قول أحدهم وهو في حضرة الحاكم: - يَطلُب العبدُ الفقيرُ الإذن بالكلام. وأكثر ما نجد مثل هذا الاستعمال في القرآن الكريم، حيث تأتي الإشارة إلى الله تعالى باستخدام ضمير الغائب (الله نور السموات والأرض)، على الرغم من أنه يكون المتكلمَ.

الخاتمة

نستنتج مما سبق أن الإشاريات الشخصية ممثلة بالضمائر المتعددة، كان لها حضور واسع في رسالة التوابع والزوابع. لكن ذلك الحضور كان يتفاوت في طبيعته تبعًا لسياق النص، ومقاصد المتكلمين. ففي المواضع القائمة على الحوار عنصرًا أساسيًّا، كان المتكلم والمخاطب محور

الحديث، وكانت تظهر عندها ضمائر المتكلم والمخاطب بصورة مكثفة ومتناوبة. في حين كان لضمير الغائب دور فاعل في الوصف والسياقات التي استدعت شرحًا وتعميمًا. وتميزت اللغة الأدبية لنص الرسالة بخاصية حيوية، هي الانتقال بين الضمائر، خدمة لغايات ومقاصد المتكلم. وتميزت ضمائر الغائب بخاصية واضحة في اتخاذ دور القناع لضمائر أخرى. وكان للسياق دور أساسي في تحديد مرجعيات تلك الضمائر، سواء ارتبطت بدلالات مباشرة أم غير مباشرة.

References

Al-murādī, ibn 'am qāsim. (2001). tūḍīḥ almqāṣd wālmsālk bi sharḥ 'alfyah ibn mālk. (ṭ.1). taḥqīq 'Abd Al-Rḥmin 'Alī sulaymān. dār al-fikr al-'arabī.

Al-Shawsh, Muḥammad. (2001). 'uṣūl tḥlīl alkhṭāb fī Al-Naẓariyah Al-Nḥūyah al-'arabiyah t'asīs nḥū Al-Nṣ, (ṭ.1). (j.2). al-mu'assasāt al-'arabiyah lltūzī'.

Al-Shhrī, 'Abd al-hādī. (2004). astrātījīat alkhṭāb mqārbah lghūyah tadāwulyah. (ṭ.1). dār al-kitāb aljdīdah almtḥdah.

'Armīnkū, franaswāz. (1986). Al-muqārabah al-tadāwulyah. tarjamat sa'īd 'alūsh. markaz al'inmā' alqawmī.

Ḥamū al-ḥāj, dhahabiyah. (2012). lsānīat Al-Tlfẓ wtadāwulyah alkhṭāb. (ṭ.2). al'aml li al-ṭibā'ah wAl-Nashr wal-tawzī'.

Ḥassān, tamām. (1994). al-lughah al-'arabiyah m'nāhā wmbnāhā. dār al-thaqāfah.

Ibn basām Al-Shantrīnī. (1997). Al-dhakhīrh fī maḥāsin 'ahl al-jazīrh. (q.1). (m.1). taḥqīq 'iḥassān 'bās. dār al-thaqāfah.

Miṣry, yḥī bashīr. (1997). sharḥ Al-Rḍī lkāfyah ibn alḥājb. (q.2). (m.1). jāmi'h al'imām Muḥammad bin s'ūd al-'islāmiyah.

Mūshlār, jāk, rūbūl, n. (2010). alqāmūs almūsū'ī lltadāwulyah. (ṭ.2). trjmah majmū'h min al'asātdhah wālbāḥthīn b'ishrāf 'z Al-Dīn almjdhūb. dār sīnātrā- almarkaz alūṭnī lltrjmah.

Naḥlah, maḥmūd 'Aḥmad. (2002). fāq jdīdah fī al-baḥth al-lughawī al-mu'āṣir. dār al-ma'rifah al-jāmi'īh.

Rūbūl, n, mūshlār, jāk. (2016). (ṯ.1). lmādhā yḥtāj tḥlīl alkhṭāb 'ilā nẓryah dhhnyah (ḏmin ktāb tsāؤlāt altadāwulyah wtḥlīl alkhṭāb). trjmah dhhbiyah ḥāj ḥmū. dār knūz al-ma'rifah li al-nashr wal-tawzī'.

Shārūdū, bātrīk, minghnū, dūmīnīk. (2008). ma'jam tḥlīl alkhṭāb (ṯ.2). trjmah 'Abd al-qādir almhīrī wḥmādī ṣmūd. dār sīnātrā almarkaz alūṯnī lltrjmah.

Yūl, jūrj. (2010). altadāwulyah (ṯ.1). trjmah qṣī al'ttabī. al-dār al-'arabiyah li al-'ulūm nāshrūn.

Levinson, Stephen C. (1983). Pragmatics. (2nd ed.). Cambridge University Press.